

حياة القديسة كسياني الشاعرة البيزنطية

(تعبد لها الكنيسة الأرثوذكسية المقدسة مساء الثلاثاء العظيم وفي ٧ من أيلول)



المقدمة

إنَّ النفوسَ العظيمةَ تعيشُ في عالمٍ خاصٍّ بها. ولا تستطيعُ أبداً عينُ الآخرينَ المغشَّاةُ أنْ تدركه. لذا تغدو هذه النفوسُ وجوهاً لا يفهمها أبناءُ عصرها. ربّما تحتاجُ إلى سنينَ عديدةٍ لا بل إلى دهورٍ لتأخذَ المرتبةَ الموافقةَ لها في فلكِ الاستحقاقِ الخُلقيّ.

إنَّ وجهها كهذا ربّما الأقلُّ اعتباراً بعدَ مريمَ المجدليّةِ هو وجهُ البارةِ كسياني.

لم تكن أبداً خاطئةً أو تعيسةً، إنّما عُرفتُ فقط كخاطئة. إنّ الجبلَةَ البشريّةَ باتّحادها مع كلِّ

أنواعِ الخطيئةِ تُحدرُ إلى مستواها الذين يتمكّنون من كسرِ القيودِ الجائرة، ومن الطيرانِ حسب قولِ الشاعرِ إلى "عوالمٍ جميلةٍ مزيّنةٍ زرقاءَ ملائكيّةٍ".

إنَّ هذه المقالةُ المخصّصةُ للبارّةِ كسياني كُتبتْ بدونِ مؤهّلاتٍ جامعيّةٍ. ولذا جاءتِ اللّغةُ المستخدمةُ فيها بسيطةً، لتُكلّمَ المسيحيّينَ الأتقياءَ الذين يجتمعونَ بخشوعٍ مساءً الثلاثاءِ العظيمِ في الكنائسِ لسماعِ ترنيمةِ "يا ربُّ إنّ المرأةَ التي سقطتْ في خطايا كثيرة...". إنّ شوقنا هو أنْ يتعرّفَ الكلُّ إلى الفتاةِ النقيّةِ، القديسةِ المنسيّةِ، الشاعرةِ غيرِ المفهومة. وأنْ تتحرّرَ النفسُ من خلالِ البارةِ كسياني لكي ترتلَ معها ومع عريسها المسيحِ أحلى التراتيلِ التي وهبَتْها لنا نفتحُها الشعريّةَ.



سيرة حياة القديسة

وسطَ هيئةِ الكتابِ اليونانيّينَ ومحيطِ الشعراءِ البيزنطيّينَ الكبيرِ، لمعتِ البارةُ كسياني كسيّدةٍ وكمثالٍ للبساطةِ والتواضعِ وكرأسِ جبلٍ مشمسٍ.

تحسُّ النفسُ البشريّةُ بتجديدٍ عفويٍّ، بتأثره، بقوةٍ دافعة، وبقِيامةٍ ونُطهرٍ في كلِّ مرّةٍ تقتربُ من كتاباتها الشعريّةِ. لأنّها كإنسانٍ وكشاعرةٍ تمكّنتْ من تقديمِ نبوغها وكلِّ ذاتها لخدمةِ الله، وتلقّنتِ الأسرارَ الإلهيّةَ. إنّ كلَّ واحدٍ إذا تأمّلَ في كتاباتها، حتّى ولو ابتعدَ عن النبعِ، سيسمعُها دوماً تتكلّمُ، من دونِ عناءٍ وبعذوبةِ الألفاظِ، عن عالمه الداخليّ.

إن كسياني بِمُحَيَّاهَا السَّيِّدِيَّ الأَمْبِرِيَّالِيَّ الكَبِيرِ، وبِقِدَاسَةِ حَيَاتِهَا سَادَتْ بِقُوَّةٍ عَظِيمَةٍ فِي
فَلَكَ الفَنِّ الشُّعْرِيِّ وَفِي سَمَاءِ القِدَاسَةِ.

إن حَيَاتِهَا تَشَابَهَ أُسْطُورَةٌ وَقَدْ أَصْبَحَتْ حَافِزًا لِيَنْسَجَ كَثِيرُونَ خَيَالَاتٍ كَثِيرَةً حَوْلَ تَارِيخِ
نَوَاةِ حَيَاتِهَا. لِأَنَّ مَا مِنْ إِنْسَانٍ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَجْمَعَ فِي دَاخِلِهِ قُوَّاتٍ مُتَضَادَّةً، الَّتِي وَعَلَى كِلَا الْجَانِبَيْنِ
تُخْفِي انْخِطَافًا بَطُولِيًّا كَبِيرًا يَتَعَذَّرُ وَصْفُهُ.

قُوَّةٌ لِلخَيْرِ لَا تَقَاوِمُ، تَسْلِيمٌ مُتَنَاهٍ لِلَّهِ، نَفْسٌ عَظِيمَةٌ يَتَعَذَّرُ وَصْفُهَا تُخْفِي دَاخِلَهَا تَوَاضَعًا
عَمِيقًا. كُلُّ هَذِهِ شَقَّتِ الطَّرِيقَ لِلحَيَاةِ وَمِنَ البَلَاطِ الَّذِي كَانَ يَنْتَظَرُهَا اخْتَارَتْ دُونَ تَرَدُّدِ حِجْرَةٍ
الرَّاهِبَةِ.

فِي الفِترَةِ الَّتِي كَانَ فِيهَا العَرِشُ البِيزَنْطِيُّ مَهْدَدًا بِالثَّورَةِ، وَعِبَادُ الأوثَانِ يُحَارِبُونَ بِشِرَاسَةِ
مُؤَيَّدِي الإيقوناتِ، تَشَابَكَتِ السَّمَاوَاتُ مَعَ الأَرْضِ وَرَبِحَتْ نَفْسَ كَسِيَانِي.

إنَّ اسْمَهَا المَرْتَبَطُ بِأُسْطُورَةٍ تَحَقَّقَتْ، وَمَعْرِفَتُهَا الشُّعْرِيَّةُ، كَذَلِكَ شَعُورُهَا المَتَعَاطِفُ مَعَ
المَرَأَةِ لِكَيِّ تَقْوِيَّ أُسَاسِهَا الخَلْقِيِّ، هَذِهِ كُلُّهَا جَمَعَتْ كُلَّ المَقُومَاتِ الَّتِي سَبَّبَتْ اِهْتِمَامَهَا هَذَا.
فَخَسِرَتِ العَرِشَ الأَعْظَمَ لِلسَّلْطَنَةِ المَجِيدَةِ فِي عَصْرِهَا.

لِلأَسَفِ، قَلِيلَةٌ هِيَ مَعَالِمُ سِيرَةِ حَيَاةِ القَدِيسَةِ الَّتِي يَذْكُرُهَا لَنَا المُؤرِّخُونَ البِيزَنْطِيُّونَ
المُخْتَلِفُونَ، إِلَّا أَنَّهَا كَافِيَةٌ لِنُطْلِعَنَا أَنَّهَا كَانَتْ شَابَةً غَنِيَّةً ذَاتَ أَصْلٍ شَرِيفٍ مُتَقَفَةً جَدًّا وَكَرِيمَةً،
وَأَيْضًا جَمِيلَةً وَجَرِيئَةً مَعَ ضَمِيرٍ وَوَعْيٍ كَامِلَيْنِ يَبْرِزَانِ قِيمَتَهَا الشُّخْصِيَّةَ وَنَفُوقَهَا.

إنَّ الصُّورَةَ الفَقِيرَةَ عَنِ حَيَاتِهَا، تَأْتِي لِتُكْمَلَ كِتَابَاتِهَا اللَّامِعَةَ وَلِتَشْهَدَ لِبْنِيَةِ الخَالِقِ
العَمِيقَةِ. فَشِعْرُهَا يَشْهَدُ لِامْرَأَةِ حَكِيمَةٍ ذَاتِ شَعُورٍ فَنِّيٍّ مَرْهَفٍ، ذَاتِ قُوَّةٍ رُوحِيَّةٍ كَبِيرَةٍ وَفَوْقَ
كُلِّ شَيْءٍ يَشْهَدُ لِإِنْسَانٍ عَمِيقِ التَّدْبِينِ وَذِي مَعْرِفَةٍ بِالكِتَابِ المَقْدَسِ. حَسَبَ قَوْلِ الأَدِيبِ
البِيزَنْطِيِّ الأَبِ كَرُومَفَاخِرِ: "إنَّ كَسِيَانِي هِيَ الوَحِيدَةُ الجَدِيدَةُ بِالذِّكْرِ كَشَاعِرَةٍ بِيزَنْطِيَّةٍ تَهْتَمُّ
شَخْصِيًّا بِالفِرْدِ وَتَهْتَمُّ بِالأَدَبِ أَيْضًا. لِأَنَّ حَيَاتِهَا تَشَبَّهُ الأُسْطُورَةَ المَنْقُوحَةَ".

إنَّ المُؤرِّخِينَ المُنْتَوِعِينَ لِلأساطيرِ، الَّذِينَ لَمْ يَتِمَكَّنُوا مِنْ إِدْرَاكِ عَظَمَتِهَا نَظْرًا لِعَمَاهُم
مِنْ جَرَاءِ سُكْرِهِم بِالْأَهْوَاءِ، حَاوَلُوا أَنْ يَحْرِفُوا الحَقِيقَةَ وَأَنْ يَخْلُقُوا أُسْطُورَةً الَّتِي لِلأَسَفِ بَاءَتْ
هَؤُلَاءِ لِكثِيرِينَ. "فَالجَمِيلَةُ النَقِيَّةُ، البَتُولُ الحَكِيمَةُ، الفِيلَسُوفَةُ والعَائِشَةُ فَقَطُ لِلَّهِ"، حَسَبَ تَعْبِيرِ
المُؤرِّخِينَ البِيزَنْطِيِّينَ فِي عَصْرِهَا، بَاءَتْ خَاطِئَةً وَلِلأَحْدَاثِ مَعْتَرَةً. أَمَّا المُؤرِّخُونَ الآخَرُونَ
الأَحْدَاثِ الَّذِينَ عَاصَرُوهَا، كَفَلِيكَاسِ، وَبِتُخُوبَرُودَرُومُسِ وَكُودِينُوسِ، وَجَاوَرِجِيُوسِ الخَاطِئِ،
وَزُونَارَاسِ الخ... كَتَبُوا قَلِيلًا عَنِ حَيَاتِهَا، فَيَذْكُرُونَ أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ إِلَّا عَرُوسًا مَرشُحَةً لِلإِمْبِرَاطُورِ
ثِيُوفِيلِسِ. لَمْ يَحْدِثْ أَيُّ أَمْرٍ بَيْنَ كَسِيَانِي وَثِيُوفِيلِسِ، لَا قَبْلَ وَلَا وَقْتَ إعْطَاءِ التَّفَاحَةِ الذَّهَبِيَّةِ إِلَى
ثَاوُذُورِ العَرُوسَةِ الثَّانِيَةِ المَرشُحَةِ مَعَهَا.

إنَّ ثِيُوفِيلِسَ كَانَ أَحَدَ الأَبَاطِرَةِ البِيزَنْطِيِّينَ الأَقْوِيَاءِ. مِنْ مَظْهَرِ عَصْرِهِ وَحُكْمِهِ يَبْدُو أَنَّهُ
كَانَ شَدِيدَ السَّلْطَنَةِ، قَاسٍ إِنَّمَا مَحَلِّيٍّ بِمِشَاعِرِ شَرِيفَةٍ كَانَ يُظْهَرُهَا فِي أَوَاقَاتِ مُخْتَلِفَةٍ.

الرواية

في سنة ٨٣٠، استدعى ثاوفيلس إلى بلاط مملكته حسناوات بيزنطية لكي يختار من بينهن امرأة له. إذذاك، لم تختَر كسياني حياةً منحرفةً حسبما بدا من المؤرخين بل حياةً تمنحها الأكاليل الأبدية. فثيوفيلس حسب العادة اليونانية المتبعة منذ عهد "باري" والحسنا "إيليني"، أبقى التفاحة جاهزةً ليقدمها إلى الفضلي، فقدم التفاحة مرتين إلى حسناوتين: الأولى لكسياني والثانية لثيودوره.

إن التقدمة الأولى قادت كسياني إلى ملك السماوات. في حين الثانية قادت ثيودوره إلى عرش بيزنطية. ومن هنا بدأت طريقاً جديداً لكل واحدة منهما.

إن جمال كسياني كان متميزاً عن سائر حسناوات البلدة، وقد تنبه لذلك ثيوفيلس. ولما قرّر أن يجعلها ملكة، ربّما لكي يجرب حكمتها قال لها: "من المرأة تتأتى الدناءة"، بمعنى أنه من المرأة تنبع الشرور. فطرق قلب كسياني بقوة كما لم يكن يترك أبداً. وبعينين منخفضتين فكرت بالسعادة التي تنتظرها والتي توشك على خسارتها. فشعرت في داخلها وباتقاد سكنى لعالمين كل واحد يدعو بجاذبية إلى عرش مختلف: قاعدة الأول على الذهب وأمجاد هذا العالم الباطلة، والعرش الثاني يقود إلى السماء. عند سماعها جملة الملك، نهضت بكليتها وبدقائق الصمت القليلة التي مرت، مالت نفسها إلى صورة والدة الإله الحلوة، وأحست بخطأ ثيوفيلس. "من المرأة تتأتى الدناءة"، كيف يتذكر الأمير فقط حواء التي منها نبت الشرور ولم يتذكر امرأة أخرى، يدين لها العالم بأسره بالخلاص؟

وجب على الفتاة الفاضلة أن تعطي الجواب الموافق ولو أنه سيكون سبباً لخسارتها عرش كل الأرض المجيد. فإنها لم تتردد أبداً. إن والدة الإله التي منحها هذه الجراءة ستساعدُها. ورفعت عينيها الموحيتين بالخلج وتمتمت بإيمانٍ ونعومةٍ لا توصف هكذا: "بل من المرأة تنبع كل الحسنات الفضلى أيها الملك".

كان وقع كلمات كسياني على مسمع ثيوفيلس كصفحة غير متوقعة. فظهرت سمات كبريائه. وبدت كسياني بجوابها أكثر حكمةً منه وتلك كانت أعظم مواجهة في حياته. فضغط بعصبية على التفاحة الذهبية بيده وهو ممتلىء حنقا، وبحوف مبهم قال لها: "يا امرأة، اصمتي". وفي نفس الوقت، قدم التفاحة المضغوطة إلى ثيودوره.

الجدير بالذكر، أن نقل القصة كما أظهرها لنا الكاتب البيزنطي ميخائيل غليكاس: "بعد ميخائيل، ملك ثيوفيلس ابنه اثني عشر سنة وثلاثة أشهر، واختار فتاة اسمها كاسيا لحكمتها الكاملة وقد سلمها تفاحة قائلًا لها: "من المرأة تتأتى الدناءة" وكانت تنحدر من بفلوغونا".



ويجب أن نؤمن أن العناية الإلهية، دبّرت بأن تُقبل ثيودوره كإمبراطورة، التي وبسبب من نشأتها الأرثوذكسية وطبعها القوي، ساعدت لاحقاً في تقوية الأرثوذكسية وتدبير مسألة الإيقونات سنة ٨٤٣.

وكذلك أن تلبس كسياني الإسكيم الرهباني بعيداً عن ضجيج وأحداث العالم وأن تقبل تسبيح كنيستنا الذي لا يموت "التي صنعت من أيديها الروحية الخاصة الإكليل الأبدي غير الفاسد" (مجلة المنارة الكنسية)

إن كسياني جحدت المادة للفكرة الآتية أن الوقتيات هي للأبديات والفسادات لغير الفاسدات. إن العالم لم يتمكن من فهم جرأتها الكبيرة ومحبتها لله. بانت حياتها نوحاً وإنجازاتها تعزية. لكنّها أصبحت ما هي عليه لأنّها اختارت الطريق التي أظهرت لها الفهم ولهيب القلب. فقد تركت الرئاسة وبيزنطية ونست العالم الذي عرفته وجحدت أيضاً أقرباءها، خرجت إلى ما فوق ذاتها وبدأت تحيا في فردوس أرضي.

لم تحمل إلى الدير حياة الخطيئة وذلك لأنّها لم توجد أبداً خاطئة. إن كنيستنا قادرة أن تُظهر للجماعة نفوساً، وتجعل منها قدوة كما حصل مع مريم البارة وآخرين غيرها. إذ إنهم رووا سابقاً البرية بدموع التوبة وأظهروا بشتى الطرق أفكارهم حول الحياة الخاطئة. هكذا، ليس غريباً على الكنيسة أن تكون كسياني خاطئة ثم تابت (لو حصل مثل ذلك في الواقع). إن ذمماً واحداً يمكن أن يُنسب إلى فتاة أرادت أن تنعم بفرح الحياة الدنيوية لا بل بالحياة الملوكية منها. هذا الأمر صار سبباً مؤكداً للاعتقاد بحياة خاطئة لنفس يتعجب منها الجميع. لكن كسياني لم تغلب بالهوى والضعف البشريين إذ سبق العشق الإلهي فغلبها، وقادها أخيراً إلى خدمة مشيئته تعالى.



في الدير

لذا نبت دير "كسياس" أو "إيكاسياس" أو "كسيانيس"، الذي جمع فيما بعد في باطنه حلوات كثيرة وأثماراً. وعاشت هناك كسياني حياة سعيدة حسبما لوحت بذلك كثيراً في كتاباتها. لقد عرفت في إطار الدير الطاهر والهاديء معنى الفرح الحقيقي، ذاك الفرح الذي يُعطى بنهوض الإنسان إلى الخالق الذي جبله تحت ستره، ما تبقى من حياتها.

إن كسياني لم تُقفل على ذاتها داخل جدران الدير الأربعة في جهاد، محاولة نكران الحياة، لكن لشوق أن تخدم الخالق والعلم - إن هدفين شرفين يستشفان من سيرها المثالي هذا. استنار ذهنها الكبير وباستنارتها بنور المحبة، سكبت حنكتها اليونانية في ريشتها وأكملت عملها الأدبي الشهى الذي جعلها تُصبح أولى الشاعرات البيزنطيات ومرثلة لامعة في التريل الكنسي.

شعر كسياني

إن كسياني وجدت نفسها داخل هدوء الدير، فبسّطت طيات نفسها الرفيعة الشديدة البهاء، ونذرت حياتها لمجد الله. إذذاك استراحت روحها وفكرها وقلبها. وفي هدوء قلايتها طلبت أن تجد الطريق السريّة التي يوحدها بالرب. فقد قيل بحقّ إنه "هناك حيث في عزلتها الخافية المتّضعة وبصمتها غير المضطرب المرتاب، وتحت ضوء القنديل الحلو الحامل الرجاء، المشتعل دون انطفاء أمام أيقونة السيّد والسيّدة، تبدّلت الراهبة كسياني المتواضعة إلى عندليب حسن التغريد يُنشد الأوديات الأكثر عجباً.

بعد أن أصبحت كسياني الآن حرّة، صار بإمكانها أن تحقّق منها التقوي منذ الطفوليّة وهو أن تُسلم ذاتها لله، أن تخدم كنيسة، أن ترتّل له، أن تنمي الموهبة الإلهية، موهبة الشعر، وأن تكتب التراثيل الكنائسيّة الرائعة.

كانت تصلي للعدراء، تتأمل الكتاب المقدّس، رسائل الكنب الأبائيّة، والتراثيل الموضوعّة المستوحاة من الوجوه القديسة مهتمّة بخلاص النساء المنحرفات.

لقد كتبت تراثيل كنائسيّة، وطروباريات، وأقوال مأثورة، قصائد شعريّة نجدها باسم الراهب كسياس، إيكسياس وكسياني. أيضاً يُنسب إليها قانون موجود في دير سيناء ويُعتقد أنّها هي ألفته. تختم قصائدها وحكمها باستيخونات متدرّجة بشكل أنّها تُعطي صورة عن حياة الدير مشدّدة على سعادتها. كما وكانت تُعرض بطلاوة ووضوح في بعض الستيخونات مفاهيمها للحياة وعبادة الله.

من كتاباتها، بقيت قطعة (الذكصا) في صلاة غروب ميلاد السيّد "لما انفرد أغسطس بالرياسة"، أراميس قانون السبت العظيم "إنّ أولاد الذين نجوا" والقطعة المشهورة "إنّ المرأة التي سقطت في خطايا كثيرة".



نشيد كسياني وخاطئة الإنجيل

إنّ كسياني السيّدة البيزنطيّة والراهبة بشعرها العميق زينت الكنيسة الأرثوذكسيّة الجامعة بالتراثيل.

إنّ جميع مؤرّخي عصرها وكتّابه والذين نشأوا من بعدها يكتبون بإعجاب كبير ورفعة عن كينونتها سيّدة حكيمة وراهبة كاملة ماسكة بزمام الشعر الكنسيّ خاصّة.

إنّ خاصيّة حياتها تشبه أسطورة أصبحت سبباً يدعو كثيرين إلى نسج قصص وحقائق حول حياتها. بمعنى آخر صوروها لنا بكسياني الخاطئة واعتقدوا أنّ شعرها يعكس عالمها بأنّها كاذبة تدعو للشفقة بدون أي ريب.

لقد أعطت انطباعاً بأنها خاطئة، ربّما حسبما ألفت في قطعة الذوكصا التي كتبتها عن توبة المرأة الخاطئة في الإنجيل (لوقا ٧) التي دهنت قدمي السيّد، فجعلت كثيرين ينسبون ذلك إلى حياتها هي.

في إطار الدير الهاديء، التفتت كسياني إلى مروج الكتاب المقدّس ورأت، بخيالها، الخاطئة في الإنجيل تُسرّع إلى نزع غبار مسراها الملوّث لرؤية محلّصها. لقد قطعت أروقةً، وطرقاتٍ مرصوفةً بالحجارة، خرجت إلى الطريق الواسعة ولم تر شيئاً. دارت في عقلها أفكارٌ عديدةٌ وكان انتباهها موجّهاً إلى قارورة الطيب الجزيل الثمن التي كانت الخاطئة تحملها. وهذا الذي افتكرت به كان جسارَةً لا بدّ من القيام به، هكذا شعرت به ولم تكن متأكّدة إن كانت ستقبل حيثُ هي ذاهبة.

إنّما ثبتت رجاءها على ذلك الذي شعرت بعمقٍ أنّه لخلاصها، أن تُوقد سراجَ عرفان الجميل. تعلّمت بقوةٍ في ذلك اليوم الذي جرى فيه الجمعُ لرجعها كونَ خطيئتها عظيمة. لقد شدّوها إلى أن جلبوها مرميةً قدّامه، مليئةً بالخزي، فلم تستطع أن ترفعَ عينيها بل نظرت شاخصةً إلى الأرض. كانت مذنبَةٌ وهذا عرفته جيّداً. أحسّت بقشعريرةٍ بكلّ جسدها وبخوفِ الموت، الموت الأكثر شدةً تملك نفسها. لم تفتكر كم من الوقت مرّ عليها وهي على هذه الحال. فقط تذكّرت صوتاً عذباً ما زالت تسمعه بأذنيها وهو " مَنْ كَانَ بِلَا خَطِيئَةٍ فَلْيُرْمِهَا بِحَجَرٍ". وإنّ واحداً أقامها وهو يكتب على الأرض. بعد ذلك تذكّرت كيف سألتها يا امرأة " أين هم الذين يشتكون عليك؟ لم يحكم عليك أحد" عند ذلك تجرّأت ورفعت رأسها. ورأت عيني الناصريّ الحلوّين الهادئتين المضيئتين. وشعرت بداخلها رجاءً يطيرُ منها " لا أحد يا سيدي". " ولا أنا أدينك إنّما انتبهني لا تحطني فيما بعد".

هذا ما فكّرت به إلى أن وصلت إلى بيت الفريسي، فدخلت بجراًة من الباب المشرّع. كان هناك المخلصُ جالساً مع بعض تلاميذه وكثيرٍ من الفريسيين. فتطلّعوا إليها متعجبين كيف وقفت على العتبة بثوبها الأبيض الوضيع - رمزٍ طهارةٍ نفسها - فبدأوا يُتمتمون فيما بينهم. لكنّها تقدّمت وجاءت من وراء عند قدمي السيّد فقبلتها وسكبت عليهما الطيب الجزيل الثمن. إنّ صلاتها وتوسّلها الحارّ وصلّا إلى شفّتها وعادا رجعاً إلى قلبها. إنّما السيّد سمعها. سمع تنهّدها وشعرَ بأقوالها الخرساء. أفاضت عيناها من دون انقطاع وهي تمسحُ بشعرها رجليه الطاهرّين. شعرها هذا المجدول والمسدل ليزين رأسها فتقتنص به الآخرين. شعرها هذا الذي استخدمته لعملها الوضيع لأنّها لم تجد غيره أكثر قيمةً.

لقد بكت أمام ذلك الذي خلّصها من رجم الحجارة ليس فقط على جسدها إنّما أيضاً على نفسها التي من اللعنة كانت تركضُ في الظلمات. لكنّها الآن ترى النور، تجرؤ على مواجهته، دموعها دموعُ فرحٍ تعبّر عن عرفانٍ جميلٍ وتوبة. ليست بحاجةٍ لأن تعترف بها. الجميع من حولها رأوها. فقط سمعان افتكر سوءاً وذلك لأنّه لم يره.. إنّما السيّد كلّمه: "يا سمعان إنّني

أرى ما نقول"، ولقنه أن يفهم ما يجري، وهو شاخصٌ إلى المرأة ويضيف: "لقد غفر لها كثيراً لأنها أحببت كثيراً"، وأحبت كثيراً لأنه أحسن إليها كثيراً. إنَّ عملَ هذه المرأة الخاطئة لم يزل يُذكر وسيُذكر إلى الأبد. ألم يقله السيّد؟ مَنْ يعلم؟ ربّما في ذلك المساء قد رأى بعينه الإلهيّين أعماقَ القرن التاسع ليبرزَ وجهَ كسياني التي أعطيت أن ترتلَ بقوةٍ كبيرةٍ وجلالٍ وبأنغامٍ متفتنةٍ هذا المشهدَ الذي استبانَ في بيتِ سمعانَ والمخبأ داخلَ عظمةِ انّضاعهِ غيرِ المعبرِ عنه. هذا الحدّث باسمِ الطروباريةِ المعروفةِ يرتلُ ولا يُكتبُ عنها. سوف نفهمُ الحقيقةَ الحقّةَ بسهولةٍ حسبما يفيضُ من عملها الخاصِّ الذي سيصبحُ دراسةً مختصرةً.

"يا ربُّ إنَّ المرأةَ التي سقطتْ في خطايا كثيرة، لما شعرتْ بلاهوتك اتّخذتْ رتبةَ حاملاتِ الطيب، وقدّمتْ لك طيوباً قبلَ الدفنِ مُتّحبةً وهاتفةً: ويحي! لقد حصلَ لي شغفُ الفجورِ وعشقُ الخطيئةِ ليلاً قاتماً فاقدَ الضياء. فأقبلَ ينابيعَ دموعي يا من يجتذبُ مياهَ البحرِ بالسحب. وانعطفَ لזفراتِ قلبي يا من أحنى السمواتِ بتنازله الذي لا يُدرِك. فأقبلَ قدميكَ الطاهرتين وأنشّفهُما بصفائِرِ رأسي اللتين لما طنَّ صوتُ وطئهما في مسامعِ حواءِ في الفردوس، جفّلتِ واستترتْ خوفاً. فمن يفحصُ كثرةَ خطاياي ولججَ أحكامك. فيا محلّصي منقذُ نفسي، لا تُعرضْ عني أنا أمتك. يا مَنْ له المراحمُ التي لا تحصى".



خاتمة

لم يُكرّم البيزنطيّون كسياني كملكةٍ ولا ذكروا اسمها من قبلِ بيتِ الإمبراطورِ ثيوفيلس. إلا أن أجيالَ المسيحيّين المؤمنينَ خلالَ العصورِ ينحنونَ بتقوى أمامَ حياتها المقدّسة، وفي مساءِ يومِ الثلاثاء العظيم من كلِّ سنةٍ يُحيونَ، بخشوعٍ سرّيٍّ وبتأثّرٍ عميقٍ، طروباريتها الشعريّةَ المرثلةَ معلّمةً كيف أن العرشَ الذهبيّ هو لا شيء، وأن أمجادَه العالميّةَ زائلةٌ ولا يجدرُ ذكرها.

إنَّ كسياني فضّلتْ بنفسها المقدّسة أن تزيّنَ عرشَ الملكِ السماويّ. واليوم وفي أماكنَ عدّةٍ يُكرّمُ ذكرها بتقوى. والمؤمنون العاشقون في جزيرة كاسو في اليونان يعيدون لها كلَّ سنةٍ في ٧ أيلول ويقيمون لها رتبةَ صلاةٍ خاصّةً.

حسبما عرفنا من كاسو فإنَّ كسياني وبسببِ مضايقةِ ثيوفيلس لها في الديرِ اضطرتْ إلى مغادرته إلى إيطاليا إلى سعادةٍ رهبانيّةٍ أخرى متواصلة. فذهبتْ إلى كريت وانتهتْ إلى كاسو حيث رقدتْ في ٧ أيلول. بعد موتها، وضعوا جثّتها في صندوقٍ من المرمرِ في كنيسةٍ صغيرةٍ على اسمها. واليوم يُحافظُ على هذا الصندوقِ من الموزاييك البيزنطيّ من القرن التاسع. أيضاً يُوجدُ في الكنيسةِ لوحةٌ موضوعةٌ على الحائطِ بإشارةِ الصليبِ مؤرّخةً من سنة ٨٩٠م. وأيضاً من كاسو لدينا معلوماتٌ تقولُ إنَّ عظامَ البارةِ نُقلتْ إلى إيكاريا.

لقد سبق وقلنا في البدء والآن نكرُّ القول، إنَّه ليس بمقدورنا أن نكتبَ عن حياتِها.
إنَّما لدينا شوقٌ كبيرٌ أن يتعرَّفَ المسيحيُّون على صورة القديسة كسياني المظلومة. فقد قادتنا
إلى كتابة هذه الصفحات القليلة وذلك لإعطاءِ فرصةٍ لكلِّ نفسٍ تحبُّ عرشَ الكمال، أن تُشرعَ
ببنائه وأن تُسحرَ بالحنِّ السماويِّ، بسيدنا يسوع المسيح.

نقلها إلى العربيَّة

سيادة المطران إفرام

متروبوليت طرابلس والكورة وتوابعهما



دير رقاد والدة الإله - حَمَطوره

© ٢٠١٠